المتنبي فى مصر

بقلم احمد احمد بدوى
المدرس بمدرسة بنها قادن الابتدائية

— ١ —

بعد نحو عشر سنوات قضاها المتنبي فى ظلال سيف الدولة ، حدثت الجفوة بينهما ، بماقام به حاسدو أبى الطيب : من وشاية ووقيعة ، حملت سيف الدّولة على أن يصمّ أذنيه ، ويغمض جفنيه ، عما لحق بشاعره من إهانة فى حضرته على يد ابن خالويه ، حين قام بينهما نقاش فى اللغة تسابا على أثره ، وأخرج ابن خالويه من كمه مفتاحا من حديد ، ضرب به وجه المتنبي ، وأسال دمه على وجهه وثيابه ، فلم ينصفه سيف الدّولة ، ولم يأخذ له بحقه ، ممّا يدلّ على أن الجفاء قد استحكم من نفس الأمير ، وأن الوشايات قد فعلت فعلها فى قلبه ، وما ظنك بوشايات يثيرها أبو فراس الحمدانىّ ابن عم سيف الدّوله ؟ فانّ ما كان يدور بينه وبين أبى الطيب من حوار ومناقشة ، يدلّك دلالة لا تحتمل الشكّ ، على أنّه كان من المدبّرين مع من يدبّر على إبعاد المتنبي من مكانته التى نالها لدى سيف الدولة .

غضب المتنبي لما ناله ؛ فخرج لا يلوى على شيء ، مزمعا فراق سيف الدولة ، وفراق البلاد التى تخضع لملكه وسلطانه ، فألقى عصا التسيار بدمشق التابعة للمملكة المصرية فى ذلك الحين ، ويقول بعض المؤرخين : إن كافورا الأخشيدى أرسل إليه وهو فى تلك المدينة يطلبه ، فأعرض وأبى قائلا : لا أقصد العبد ، وإن دخلت مصر فما قصدى إلا ابن سيده . هكذا يقول البعض ؛ أما أنا فأكاد أوقن أنها رواية مكذوبة عليه ، بدليل أنه حين جاء إلى مصر مدح كافورا وأطنب فى مدحه ، على عكس تصريحه السابق ، الذى لو ثبت أنه قال لخشى — على أقل تقدير — أن يصل عليه إلى كافور ، فيحقد عليه ، ويعمل على الانتقام منه ، ولكنّه — على

العكس من ذلك ـ لم يشد إلا بذكر كافور ومآثره ، ولم يعرض لابن سيده إلا عرضا من غير قصد ؛ وإنما نرجح أن أبا الطيب حين خرج مغاضبا لسيف الدولة ، فكر فى أن ينتقم لنفسه مما لحقها من الإهانة ، وعوّل على الالتجاء إلى كافور الذى كان منافسا لسيف الدولة فى البلاد الشامية ، وطالما وقعت الحروب بين الإخشيد ولى نعمة كافور ، وبين سيف الدولة ؛ مما جعل بعض بلاد الشام تدخل فى ملكة الإخشيد حينا ، وفى ملكة سيف الدولة حينا آخر ، وكان كافور نفسه أحد القواد الذين نصبهم الإخشيد على جيشه المحارب لسيف الدولة ، ومن هنا نشأ التنافس بين سيف الدولة وكافور ، ذلك التنافس الذى جعل المتنبي يفكر فى اللحاق بمنافس أميره ، الذى لم يرع له حقوقه ، ولم يعرف له قدره ، وقد يجوز أن كافورا كاتبه بالمسير إليه ، حين علم بما حدث بينه وبين سيف الدولة من جفاء ، فأجاب المتنبي طلبه ، رجاء أن يبلغ عنده ما يغسل الإهانة التى لحقته . أضف إلى هذا أن كافورا كان يحب الأدب ويعطف على الأدباء ، مما يحبّب المتنبي فيه ويبعث فيه الأمل على أن ينال منه كل أمانيه .

— ٢ —

كافور الإخشيدى ، ويقال له : الأستاذ كافور ، ويكنى بأبى المسك ؛ أصله عبد حبشى خصى اشتراه الإخشيدى من بعض أهل مصر بثمانية عشر دينارا ، فما زال يتقدم عند سيده ، حتى أصبح مربى ولديه ، وقائدا من أكبر قواده الذين اعتمد عليهم فى تأسيس دولته ؛ لعقله ، وتدبيره ، وشجاعته ، وحسن رأيه . فلما مات الأخشيد ، وكان قد أخذ البيعة من بعده لابنه أنو جور ، قام كافور فيما عليه ، لأن الأمير كان لا يزال قاصرا لا يستطيع إدارة البلاد ، فأصبح هو الأمير الحقيقى للبلاد ، وصاحب الحول والطول فيها ، حتى مات أنو جور عام تسع وأربعمائة ، وتولى بعده أخوه أبو الحسن على بن الاخشيد ، فاستبد كافور بالأمر دونه ، حتى بلغ من شأنه أن منع الناس من الاجتماع بالأمير ، ويقال : إنه حين كبر ، وتبين ما هو فيه باح الشراب بما فى نفسه من ألم دفين : ألم ذى الحق المغصوب ، والأمر السليب ، فخاف كافور أن يفلت العرش من يده ، فدس له السم ، فمات

سنة خمس وخمسين وثلثمائة ، وهنا تولى كافور أمر مصر ، وأظهر خلعا وكتبا من الخليفة بولايته لمصر والشام والحجاز ، فتولاها حتى مات عام سبعة وخمسين وثلثمائة .

كان لكافور ناحيته المشرقة : من طموحه وهمته التى بلغت به الملك ، وله ناحية أخرى تضعه وتحط من قدره ، ولكنه ليس له يد فيها ، فهو عبد أسود خصى مثقوب الشفة السفلى ، بطين مشقق القدمين ، ثقيل البدن ، إلى غير ذلك من صفات جسمية تنأى به عن الجمال والحسن ، وقد استغل أبو الطيب الناحيتين ؛ فنظر إليه من الناحية الأولى حين أراد مدحه ، ونظر إليه من الناحية الثانية حين هجاه وأقذع فى هجائه .

— ٣ —

فى جمادى الآخرة سنة ست وأربعين وثلاثمائة ، نزل المتنبى الديار المصرية ، وكان القائم بادارة الملك كافور الاخشيدى ، نائبا عن أنو جور لصغر سنه ، كما أسلفنا ، فأمر له كافور بمنزل خاص به ، وخلع عليه ، وحمل اليه آلافا من الدراهم كما يقول الرواة ، فأنشد أول قصيدة يمدحه فيها ومطلعها :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

وإذا نحن قطعنا النظر عن انتقاد الرواة لمطلع هذه القصيدة ، بدعوى أنه غير لائق بفاتحة قصيدة تقال فى مدح الملوك — إذا نحن قطعنا النظر عن هذا ، وجب علينا أن نلمس الإحساسات والرغبات التى كانت تدور بنفس أبى الطيب حين أنشأ هذه القصيدة ، وإننا إذا فعلنا ذلك رأينا عكس ما يراه الناقدون ، إذ نرى هذا البيت يمثلا أعظم تمثيل لنفسية المتنبى ، الساخط على الصداقة والأصدقاء ، بعد أن أصابه فى مجلس سيف الدولة ما أصابه . وفى الحق أننا نلمس ثلاثة هواجس كبرى ألمت بالمتنبى حين أراد إنشاء هذه القصيدة ، فعبر عن هذه الهواجس ، وجعلها فاتحة قصيدته فى مدح كافور : أول هذه الهواجس سخطه العميق على الصداقة والأصدقاء ، وشدة ضجره من قسوة أعدائه عليه ، حتى

ليجهرون بعدواته من غير لثام ولا خباء ، وحسبك أن تقرأ هذين البيتين لترى فيهما تلك الروح الساخطة :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

تَمَنَّيْتَهَا لَمَّا تَمَنَّيْتَ أَنْ تَرَى صَدِيقًا ، فأعيا ، أَوْ عَدُوًّا مُدَاجِيَا

أما الإحساس الثانى فهو إحساس النفس الطموح ، تصاب فى أمانيها ، فلا تخضع ولا تلين لعركة القدر ، ولكنها توطن أمرها على أن تجد ، وعلى أن تعمل ؛ أنفة من العيش بذلة ، وكأن المتنبي حينئذ يحدثنا عما حداه إلى مغادرة سيف الدولة ، وأنه طموح نفسه وأنفتها من الخضوع والخنوع . قال :

إِذَا كُنْتَ تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ بِذِلَّةٍ فَلَا تَسْتَعِدَّنَّ الْحُسَامَ الْيَمَانِيَا

وَلَا تَسْتَطِيلَنَّ الرِّمَاحَ لِغَارَةٍ وَلَا تَسْتَجِيدَنَّ الْعِتَاقَ الْمَذَاكِيَا

فَمَا يَنْفَعُ الْأُسْدَ الْحَيَاءُ مِنَ الطَّوَى وَلَا تُتَّقَى حَتَّى تَكُونَ ضَوَارِيَا

أما الإحساس الثالث فهو ذلك الاحساس الذى ملك عليه كل وقته أيام إقامته بمصر ، وهو نزوع قلبه إلى سيف الدولة ، ومجاهدته هذا النزوع ، وفى الحق أن المدة الطويلة التى قضاها فى أكناف سيف الدولة ، والبر الذى ناله على يديه ، وجلال الذكر ونباهة الصيت الذى حازه بسبب قربه منه واستظلاله بظله ، كل ذلك كان له أثره العميق فى نفس أبى الطيب ؛ فكانت نفسه تنازعه دائما إليه فيحن إلى عهده ، ويتوق إلى أيامه ، ثم يعود إلى نفسه ، يلتمس لها عذرا فى مفارقته ، لتنصرف حينا عن النزوع الشديد إليه ؛ فيرميه بالغدر ، وأن جوده شيب بالأذى ، وأن وده غير صاف ، وقلبه غير واف . وإن مثل تلك الدعاوى ، تستوحيها النفس المكلومة لتخفف بها ثورتها ، وتهدىء لاعجها ، وأنصت إلى النزاع الذى دار بينه وبين قلبه حين يقول :

حَبَبْتُكَ قَلْبِى قَبْلَ حُبِّكَ مَنْ نَأَى وَقَدْ كَانَ غَدَّارًا ، فَكُنْ أَنْتَ وَافِيَا

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْبَيْنَ يُشْكِيكَ بَعْدَهُ فَلَسْتَ فُؤَادِي إِنْ رَأَيْتُكَ شَاكِيَا
فَإِنَّ دُمُوعَ الْعَيْنِ غُدْرٌ بِرَبِّهَا إِذَا كُنَّ إِثْرَ الْغَادِرِينَ جَوَارِيَا
إِذَا الْجُودُ لَمْ يُرْزَقْ خَلَاصًا مِنَ الْأَذَى
فَلَا الْحَمْدُ مَكْسُوبًا ، وَلَا الْمَالُ بَاقِيَا
أَقِلَّ اشْتِيَاقًا أَيُّهَا الْقَلْبُ ، رُبَّمَا رَأَيْتُكَ تُصْفِي الْوُدَّ مَنْ لَيْسَ صَافِيَا

ولكن المتنبي لا يكتفي بهذا ، بل إنه ليذهب متسائلا عن سبب هذا الحنين المتواصل إليه بعد ما لحقه من الإهانة في مجلسه ، فيعلل ذلك ويقول :

خُلِقْتُ أَلُوفًا ، لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصِّبَا
لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجَعَ الْقَلْبِ بَاكِيَا

وخرج بعد ذلك إلى وصف الخيل التي أوصلته إلى كافور ، ثم إلى مدح كافور ، ولقد رأيت فيما أسلفنا أن لكافور ناحيتين : ناحية يليق بها المدح ، وأخرى يليق بها الهجاء ، ولقد استغل المتنبي ناحية الجمال في كافور ، فغالى في المدح أيما مغالاة ، وافتن فيه أيما افتنان ، في هذه القصيدة وسبع القصائد الأخرى التي أنشدها في المدة التي بقيها بمصر مدحا لكافور ، وسنعرض لهذا المدح بعد ، غير أننا نريد فقط أن نلمس الروح التي سرت في هذه القصائد ، والميزات العامة التي تبدو عليها ، ويظهر أن أولى هذه الميزات إلحاحه المتواصل على كافور ، أن يوليه ولاية ، أو يجعله على عمل ، لمح بهذا في أولى قصائده حيث قال :

وَغَيْرُ كَثِيرٍ أَنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ فَيَرْجِعَ مَلْكًا لِلْعِرَاقَيْنِ وَالِيَا
فَقَدْ تَهَبُ الْجَيْشَ الَّذِي جَاءَ غَازِيًا لِسَائِلِكَ الْفَرْدَ الَّذِي جَاءَ عَافِيَا

ثم طلب إليه صراحة أن يكل إليه أي أمر أراد ، فانه أسد القلب ، آدمي الرواء ، فلما لم يكل إليه أمرا بعد مضى أربعة أشهر على قدومه مصر ، عاد يطلب منه أن يوليه ولاية بالإغراء الملح حيث يقول :

قالوا: هَجَرْتَ إِلَيْهِ الغَيْثَ؛ قُلْتُ لَهُمْ

إِلَى غُيُوثِ يَدَيْهِ وَالسَّحَابِ

إِلَى الَّذِى تَهَبُ الدَّوْلاَتِ رَاحَتُهُ وَلاَ يَمُنُّ عَلَى آثَارِ مَوْهُوبِ

فلم يجبه كافور بعد كل هذا الإغراء، فظن أبو الطيب، أو أراد أن يلقى فى روع نفسه، أن عدم توليته وتنصيبه على عمل، ربما يعود إلى أن كافورا يشك فى كفايته لهذا الأمر، فطلب إليه أن يجر به ليظهر له الحق من الباطل، وقال:

فَكُنْ فِى اصْطِنَاعِى مُحْسِناً كَمُجَرِّبٍ

يَبِنْ لَكَ تَقْرِيبُ الْجَوَادِ وَشَدُّهُ

إِذَا كُنْتَ فِى شَكٍّ مِنَ السَّيْفِ فَابْلُهُ فَإِمَّا تُنَفِّيهِ ، وَإِمَّا تعدُّهُ

وَمَا الصَّارِمُ الْهِنْدِىُّ إِلاَّ كَغَيْرِهِ إِذَا لَمْ يُفَارِقْهُ النِّجَادُ وَغِمْدُهُ

وكان ذلك الحديث فى ذى الحجة من السنة الأولى لدخوله مصر، فاصم كافور أذنيه عن دعائه، ولم يجبه إلى طلبته، فلم ييأس أبو الطيب، وظل يضرب على نغمة أنه يريد كيد أعدائه وإغاظة الشامتين الذين رجوا له البوار بعد فراق سيف الدولة، فقال له:

أَبَا الْمِسْكِ أَرْجُو مِنْكَ نَصْرًا عَلَى الْعِدَا

وَآمُلُ عِزًّا يَخْضِبُ الْبِيضَ بِالدَّمِ

وَيَوْمًا يَغِيظُ الشَّامِتِينَ ، وَحَالَةً

أُقِيمُ الشَّقَا فِيهَا مَقَامَ التَّنَعُّمِ

وَمِثْلُكَ مَنْ كَانَ الْوَسِيطَ فُؤَادُهُ

فَكَلِّمْهُ عَنِّى ، ولم أتكلم

ولكن فؤاد كافور لم يكلمه عنه أيضا ، ولم يجبه إلى طلبته ، فضج أبو الطيب من هذه الحال ، وضجر لبعد أمله ، وتعسر نيله عليه ، فقال لكافور فى شهر شوال سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ، أى بعد سنة ونصف من قدومه إلى مصر تقريبا :

أَبَا الْمِسْكِ، هَلْ فِي الْكَأْسِ فَضْلٌ أَنَالُهُ؟
فَإِنِّي أُغَنَّى مُنْذُ حِينٍ وَتَشْرَبُ
وَهَبْتَ عَلَى مِقْدَارِ كَفَّيْ زَمَانِنَا
وَنَفْسِي عَلَى مِقْدَارِ كَفَّيْكَ تَطْلُبُ .
إِذَا لَمْ تَنُطْ بِي ضَيْعَةً أَوْ وِلَايَةً
فَجُودُكَ يَكْسُونِي ، وَشُغْلُكَ يَسْلُبُ

وكانت تلك الدعوة كسابقاتها ، لم تجد قبولا من نفس كافور ، فأصم أذنيه كذلك عن سماع رجائه ، فضاق أبو الطيب ذرعا ، وبدأ يرى أن كافورا لن يعطيه ولاية ، ولن ينصبه على عمل ، فضجر وسئم ، ولكنه لم يشأ أن ييأس وأن يستسلم ، فبعد سنتين من تاريخ إلقائه هذه القصيدة ، أنشده قصيدة أخرى كانت هى آخر ما أنشده ، وفيها يقول :

أَرَى لِي بِقُرْبِي مِنْكَ عَيْنًا قَرِيرَةً ... وَإِنْ كَانَ قُرْبًا بِالْبِعَادِ يُشَابُ
وَهَلْ نَافِعِي أَنْ تُرْفَعَ الْحُجْبُ بَيْنَنَا ... وَدُونَ الَّذِي أَمَّلْتُ مِنْكَ حِجَابُ
أُقِلُّ سُلَامِي حُبَّ مَا خَفَّ عَنْكُمُو ... وَأُسْكِتُ، كَيْمَا لَا يَكُونَ جَوَابُ
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ، وَفِيكَ فَطَانَةٌ ... سُكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ
وَمَا شِئْتُ إِلَّا أَنْ أَدُلَّ عَوَاذِلِي ... عَلَى أَنَّ رَأْيِي فِي هَوَاكَ صَوَابُ
وَأُعْلِمَ قَوْمًا خَالَفُونِي فَشَرَّقُوا ... وَغَرَّبْتُ ، أَنِّي قَدْ ظَفِرْتُ، وَخَابُوا

غير أن ذلك لم يغير من الموقف شيئا ، ولم يمنحه كافور الولاية . وإن هذا اللجاج من المتنبي فى طلب ولاية من كافور ليملأ شعره ، حتى إن قصيدة واحدة من قصائد مدحه له ، لم تخل من تحدثه عن هذا الأمل ، ورغبته الملحة فى إنجازه ؛ وهذا يصور أمامنا نفسية المتنبي ظاهرة دون خفاء ، فهو يرغب فى الملك ويطمح إليه ، وقد ظن أن نبوغه فى الشعر وكثرة مدحه لكافور يوصلانه إلى أمله ، فيغيظ حساده ، الذين كادوا له عند سيف الدولة ، ولكن كافورا كان أحكم من أن يغره مثل شعر المتنبي ومديحه ، فاعتقده أولا غير أهل للولاية والسلطان وإدارة شئون عمالة من العمالات . وهى تلك العقيدة التى جد المتنبي كثيرا فى سبيل إبطالها . وطلب إليه أن يبلوه ويختبره ، لأن السيف ما دام فى قرابه لا يميز جيده من رديئه ، وعند الاختبار يبدو الصغر من الكبار ، وهناك رواية تحدثنا أن كافورا سئل : لماذا لم يول أبا الطيب ولاية ؟ فقال : إنه وهو فقير معدم قد ادعى النبوة بعد النبي . فكيف به بعد أن يلى ، ويصبح له أتباع وأنصار ؟ إنه لا يأمن أن يستقل بولايته ، أو أن يرثه فى مصر كلها بعد مماته . ويقولون : إن المتنبي طلب منه ولاية (صور) فى الشام ، أو إحدى ولايات الصعيد . وهذه الرواية تبين السبب الأساسى الذى حدا بكافور أن يمنعه تولى ولاية بعد أن كان قد وعده بها ، ومناه ؛ فان شعر المتنبي يدلنا على أن كافورا وعده بولاية بعض أعماله ، ولكنه لم يف له بهذا الوعد ـ ولقد لجأ المتنبي إلى طريقتين يستجلب بهما رضا كافور عن توليته عمالة من عمالات ملكه ؛

أولاهما : (وهى ثانية الظواهر الثلاث فى شعره بمصر) إظهار نفسيته بمظهر المترفع المتعالى ، ووصفها بأنها نفسية ملك حلت فى إهاب شاعر ، فهو يقول له مرة :

وَفُؤَادِى مِنَ الْمُلُوكِ، وَإِنْ كَا نَ لِسَانِى يُرَى مِنَ الشُّعَرَاءِ

ويقول له أخرى :

تَهْوِى بِمُنْجَرِدٍ لَيْسَتْ مَذَاهِبُهُ لِلُبْسِ ثَوْبٍ وَمَأْكُولٍ وَمَشْرُوبِ
يَرَى النُّجُومَ بِعَيْنَىْ مَنْ يُحَاوِلُهَا كَأَنَّهَا سَلَبٌ فِى عَيْنِ مَسْلُوبِ

ويقول فى ثالثة :

وَفِى النَّاسِ مَنْ يَرْضَى بِمَيْسُورِ عَيْشِهِ ... وَمَرْكُوبُهُ رِجْلاَهُ، وَالثَّوْبُ جِلْدُهُ
وَلٰكِنَّ قَلْباً بَيْنَ جَنْبَىَّ ، مَالَهُ ... مَدًى يَنْتَهِى بِى فِى مُرَادٍ أَحُدُّهُ

وقد حسب المتنبى أن ذلك يرشحه لمنصب الملك ، ويهيئه للعرش والسلطان ، فلا يحتقره كافور بدعوى أنه شاعر لا علاقة له بالملك والحكم ، ولكنى أكاد أوقن أن ذلك من الأسباب الرئيسية التى خوفت كافوراً من استخدامه وإبلاغه أمله ، فانه يخشى تلك النفسية العظيمة التى بين جنبى المتنبى أن تعمل على الاستقلال والانفراد .

والطريقة الثانية : الاغراق فى مدح كافور إلى آخر حدود الاغراق ، فانه قد استغل الناحية المشرقة من كافور استغلالا تاما ، وحسبك أن تسمع قوله فى القصيدة الأولى :

قَوَاصِدُ كَافُورٍ تَوَارِكُ غَيْرِهِ ... وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقَلَّ السَّوَاقِيَا
فَجَاءَتْ بِنَا إِنْسَانَ عَيْنِ زَمَانِهِ ... وَخَلَّتْ بَيَاضاً خَلْفَهَا وَمَآقِيَا
نَجُوزُ عَلَيْهَا الْمُحْسِنِينَ إِلَى الَّذِى ... نَرَى عِنْدَهُمْ إِحْسَانَهُ وَالْأَيَادِيَا
فَتًى مَا سَرَيْنَا فِى ظُهُورِ جُدُودِنَا ... إِلَى عَصْرِهِ إِلاَّ نُرَجِّى التَّلاَقِيَا
تَرَفَّعَ عَنْ عُونِ الْمَكَارِمِ قَدْرُهُ ... فَمَا يَفْعَلُ الْفَعْلاَتِ إِلاَّ عَذَارِيَا
أَبَا الْمِسْكِ، هَذَا الْوَجْهُ الَّذِى كُنْتُ تَائِقاً ... إِلَيْهِ ، وَهَذَا الْيَوْمُ الَّذِى كُنْتُ رَاجِيَا
أَبَا كُلِّ طِيبٍ ، لاَ أَبَا الْمِسْكِ وَحْدَهُ ... وَكُلِّ سَحَابٍ ، لاَ أَخُصُّ الْغَوَادِيَا
يُدِلُّ بِمَعْنًى وَاحِدٍ كُلُّ فَاخِرٍ ... وَقَدْ جَمَعَ الرَّحْمٰنُ فِيكَ الْمَعَانِيَا

وقوله فى أخرى :

تَفْضَحُ الشَّمْسَ كُلَّمَا ذَرَّتِ الشَّمْـــسُ بِشَمْسٍ مُنِيرَةٍ سَوْدَاءِ
إِنَّ فِى ثَوْبِكَ الَّذِى الْمَجْدُ فِيهِ ... لَضِيَاءً يُزْرِى بِكُلِّ ضِيَاءِ

إِنَّمَا الْجِلْدُ مَلْبَسٌ، وَابْيِضَاضُ النَّفْـــسِ خَيْرٌ مِنَ ابْيِضَاضِ الْقَبَاءِ

كَرَمٌ فِى شَجَاعَةٍ ، وَذَكَاءٍ فِى بَهَاءٍ ، وَقُدْرَةٌ فِى وَفَاءِ .

مَنْ لِبِيضِ الْمُلُوكِ أَنْ تُبْدِلَ اللَّوْ نَ بِلَوْنِ الْأُسْتَاذِ وَالسَّحْنَاءِ ؟

فانظر اليه كيف يلتمس العذر للونه ، ويعده من المفاخر التى يشرف الملوك أن تبدل ألوان جلودهم بلون جلده .

وإذا كانت الطريقة الأولى لم تنجح فى جلب ولاية للمتنبي ، فلم تكن الطريقة الثانية بأنجح منها ، وأغلب الظن أن كافورا كان يودّ من أبى الطيب أن يظل فى دولته تحت لوائه ، على أن يكون شاعره الخاصّ ، ممتعا بكل مظاهر الترف والرّفهنية ، على شريطة ألا يطمع فيما سوى ذلك ، ولكنها نفس أبى الطيب الطموح التى لا ترضى بالقليل .

الظاهرة الثالثة هى التى تحدثنا عن النزاع الذى كان قائما بين المتنبي ونفسه ، وحنينه الدائم إلى سيف الدولة ، فهو لا يكاد ينشىء قصيدة فى مدح كافور إلا ويذكر فيها سيف الدولة وألمه لفراقه ، وكان بجانب ذلك يتلمس الأسباب التى تهدىء من روعه حينا ، وتخفف عليه شدة هذا الفراق حينا آخر ، وإن رغبته فى تهدئة قلبه وضميره هى التى كانت تدعوه فى كثير من الأحيان إلى أن ينسب سيف الدولة إلى إهانته وجفوته ، ثم يعود غير مطمئن إلى ذلك ، فيندم ويتحسر ، ثم يعود وهكذا ، مما يدل على نزاع قلبه الدائم إلى سيف الدولة ، و إن شئت أن تلمس ذلك فاقرأ قوله :

فِرَاقٌ ، وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرُ مُذَمَّمٍ وَيَمٌ ، وَمَنْ يَمَّمْتُ خَيْرُ مُيَمَّمِ !

وَمَا مَنْزِلُ اللَّذَّاتِ عِنْدِى بِمَنْزِلٍ إِذَا لَمْ أُبَجَّلْ عِنْدَهُ ، وَأُكَرَّمِ

فَلَوْ كَانَ مَا بِى مِنْ حَبِيبٍ مُقَنَّعٍ عَذَرْتُ ، وَلَكِنْ مِنْ حَبِيبٍ مُعَمَّمِ

رَمَى ، وَاتَّقَى رَمْيِى ، وَمِنْ دُونِ مَا اتَّقَى هَوًى كَاسِرٌ كَفِّى ، وَقَوْسِى ، وَأَسْهُمِى

أُصَادِقُ نَفْسَ الْمَرْءِ مِنْ قَبْلِ جِسْمِهِ وَأَعْرِفُهَا فِي فِعْلِهِ وَالتَّكَلُّمِ
وَإِنْ بَذَلَ الْإِنْسَانُ لِي جُودَ عَابِسٍ جَزَيْتُ بِجُودِ التَّارِكِ الْمُتَبَسِّمِ

وقوله :

وَلِلَّهِ سَيْرِي ! مَا أَقَلَّ تَئِيَّةً عَشِيَّةَ شَرْقِيَّ الْحَدَالَى وَغُرَّبُ
عَشِيَّةَ أَخْفَى النَّاسِ بِي مَنْ جَفَوْتُهُ وَأَهْدَى الطَّرِيقَيْنِ الَّتِي أَتَجَنَّبُ

وفى الحق إنا لا نكون مغالين إذا قلنا : إن حنينه إلى سيف الدولة لم يفارقه طول المدة التى قضاها بمصر فى ظلال كافور .

— ٤ —

اتصل أبو الطيب المتنبي ، وهو بمصر بقائد آخر هو أبو شجاع فاتك ، وأبو شجاع فاتك هو الذى يقول عنه ابن خلكان : إنه مملوك رومى الأصل ، وكان سيده قد أعتقه بالرملة ، عند ما أراد الإخشيد أن يأخذه منه كرها ، وكان شجاعا مقداما ، ولذلك لقب بالمجنون ، وكان رفيق الأستاذ كافور فى خدمة الإخشيد ، فلما مات مخدومهما وتقرر كافور فى خدمة ابن الإخشيد ، أنف فاتك من الإقامة بمصر ، كى لا يكون كافور أعلى منه مرتبة ، ويحتاج أن يركب فى خدمته ، وكانت الفيوم وأعمالها إقطاعا له ، فانتقل إليها ، واتخذها مسكنا ، فلم يصح له بها جسم ، وكان كافور يخافه ، ويكرمه خوفا منه ، وفى نفسه منه ما فيها ، فاستحكمت العلة فى جسم فاتك ، وأحوجته إلى دخول مصر للمعالجة ، فدخلها ، وبها أبو الطيب المتنبي ضيفا للأستاذ كافور ، وكان يسمع بكرم فاتك وكثرة شجاعته ، غير أنه لا يقدر على قصده خوفا من كافور ، وفاتك يسأل عنه ويراسله بالسلام ، ثم التقيا بالصحراء مصادفة من غير ميعاد ، فلما رجع فاتك إلى داره حمل لأبى الطيب فى ساعته هدية قيمتها ألف دينار ، ثم أتبعها هدايا أخرى فاستأذن المتنبي الأستاذ كافوراً فى مدحه ، فأذن له ؛ فمدحه بقصيدته المشهورة : (لا خيل عندك تهديها ولا مال) . انتهت رواية ابن خلكان . وهى رواية يذكرها

جل مؤرخى المتنبي وفاتك؛ وإذا رجعنا إلى شعر المتنبي فى فاتك، وجدنا فيه روح الحب وروح صدق المودة؛ ولسنا نستدل على ذلك بقصيدته التى مدحه بها. فقد يكون ذلك ناشئاً عن رغبته فى عطاياه. ولكننا نستدل عليه بقصائده التى رثاه بها؛ فهى ثلاث قصائد تفيض بالحب وصدق المودة؛ كما سنبين بعد مما يدلنا على أن روحيهما قد تآلفا، وأن المتنبي أخلص له المودة وصافاه وأخلص له المصافاة؛ وكان ذلك من الأسباب التى حملت كافوراً على بغض المتنبي وكراهته . . .

مدح المتنبي فاتكا بقصيدته التى مطلعها :

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا، وَلاَ مَالُ فَلْيَسْعَدِ النُّطْقُ، إنْ لَمْ يُسْعِدِ الْحَالُ

وهى قصيدة طويلة لم تبلغ إحدى قصائده فى كافور مبلغها؛ ولعل المتنبي أحس طولها؛ فأراد أن يعتذر من هذا التطويل الذى يكرهه بعض الناقدين للأدب، فقال :

وَقَدْ أَطَالَ ثَنَائِى طُولُ لاَ بِسِهِ إنَّ الثَّنَاءَ عَلَى الشِّبْالِ شِبْالُ

وقد أوحى إليه فكره ماشاء أن ينسبه إليه من كرم وشجاعة وفضل ونبل. وغالى فى ذلك أيما مغالاة حتى قال :

كَفَاتِكٍ، وَدُخُولُ الْكَافِ مَنْقَصَةٌ

كَالشَّمْسِ قُلتُ، وَمَا لِلشَّمْسِ أَمْثَالُ

ولم ينس أن يرد على من يلقبه بالمجنون بقوله :

وَقَدْ يُلَقِّبُهُ الْمَجْنُونَ حَاسِدُهُ إذَا اخْتَلَطْنَ، وَبَعْضُ الْعَقْلِ عِقَّالُ

أى أن حاسده يلقبه بالمجنون إذا اختلطت السيوف والرماح، لما يراه من شجاعته وإقدامه، مع أن العقل فى مثل هذه الحال لايحمد

أما الذى نستدل به على وفاء المتنبي لفاتك، فهو كما قلنا قصائد رثائه فيه، وهى ثلاث :

أولاها — أنشأها خاصة لرثائه، بعد أن ترك مصر، وقد حدثنا فيها عن

عواطفه إزاء الراحل العزيز لديه ، الحبيب إلى قلبه ؛ ثم سجل فى شعره لفاتك خلال السمو والنبل ، حتى لقدرفعه عن أهل زمانه ، وجعل قدره أسمى من أن يعيش معهم . وهو فى هذه القصيدة قد أراد أن يغيظ كافوراً من ناحية . وأن يوازن بينه وبين فاتك من ناحية أخرى ، وكانت نتيجة هذه الموازنة وضعاً من شأن كافور ، ورفعاً من قدر فاتك . ولأنقل هنا بعض هذه القصيدة لترى فيها بعض ما ذكرت ؛ قال :

كُنَّا نَظُنُّ دِيَارَهُ مَمْلُوءَةً ... ذَهَباً ؛ فَمَاتَ وَكُلُّ دَارٍ بَلْقَعُ

وَإِذَا المَكَارِمُ وَالصَّوَارِمُ وَالقَنَا ... وَبَنَاتُ أَعْوَجَ ، كُلُّ شَيْءٍ يَجْمَعُ

المَجْدُ أَخسَرُ ـ وَالمَكَارِمُ ـ صَفْقَةً ... مِنْ أَن يَعِيشَ لَهَا الهُمَامُ الأَروَعُ

وَالنَّاسُ أَنزَلُ فِى زَمَانِكَ مَنزِلاً ... مِن أَن تُعَايِشَهُم ، وَقَدرُكَ أَرْفَعُ

بَرِّد حَشَايَ إِن استَطَعْتَ بِلَفظَةٍ ... فَلَقَد تَضُرُّ إِذَا تَشَاءُ وَتَنفَعُ

مَنْ لِلمَحَافِلِ وَالجَحَافِلِ وَالسُّرَى؟ ... فَقَدَتْ بِفَقْدِكَ نَيِّراً لاَ يَطْلُعُ

وَمَنِ اتَّخَذْتَ عَلَى الضُّيُوفِ خَلِيفَةً؟ ... ضَاعُوا ! وَمِثْلُكَ لاَ يَكَادُ يُضَيِّعُ

قُبْحًا لِوَجْهِكَ يَا زَمَانُ ؛ فَإِنَّهُ ... وَجْهٌ لَهُ مِن كُلِّ قُبْحٍ بُرْقُعُ

أَيَمُوتُ مِثْلُ أَبِى شُجَاعٍ فَاتِكٍ ... وَيَعِيشُ حَاسِدُهُ الخَصِىُّ الأَوْكَعُ؟

أَبْقَيْتَ أَكْذَبَ كَاذِبٍ أَبْقَيْتَهُ ... وَأَخَذْتَ أَصْدَقَ مَن يَقُولُ وَيَسْمَعُ

وَتَرَكْتَ أَنتَنَ رِيحَةٍ مَذمُومَةٍ ... وَسَلَبْتَ أَطْيَبَ رِيحَةٍ تَتَضَوَّعُ

أما القصيدة الثانية فلم ينشئها قصداً لرثاء فاتك ، ولكنه عرض لرثائه فى أثنائها ، والقصيدة فى الواقع أنشأها المتنبى يصف لنا فيها خروجه من مصر ، ويحدثنا عن بعض الفلسفة التى أوحتها إليه المدة التى قضاها فى مصر ، وسوف نعرض لهذا كله بعد ؛ على أن بضعة الأبيات التى تحدث فيها عن فاتك لم تخل

من روح التعظيم له والاجلال ، فجعل الأحياء كلهم لا يشابهونه فى شيمة ، فلما مات لم يبق له خلف فيهم ، وأنصت إليه يقول :

لاَ فَاتَكٌ آخَرٌ فِى مِصْرَ نَقْصِدُهُ وَلاَ لَهُ خَلَفٌ فِى النَّاسِ كُلِّهِمِ
مَنْ لاَ تُشَابِهُ الأَحْيَاءُ فِى شِيَمٍ أَمْسَى تُشَابِهُ الأَمْوَاتُ فِى الرِّمَمِ
عَدِمْتُهُ ، وَكَأَنِّى سِرْتُ أَطْلُبُهُ فَمَا تَزِيدُنِىَ الدُّنْيَا عَلَى الْعَدَمِ

أما القصيدة الثالثة ، فهى قطعة صغيرة لا تزيد على عشرة أبيات ، لم ينس فيها أن يعرض بملوك مصر ، وأنهم اذ أقيسوا بفاتك خرجوا أصفارا أنفع من وجودهم عدمه ، وأجود من جودهم بخله ، وأحمد من حمدهم ذمه ، وأشرف من عيشهم موته

— ٥ —

أقام المتنبي فى مصر نحو ثلاث سنوات ونصف سنة ، مدح كافوراً فى أثنائها بأربع قصائد فى نصف السنة الأولى لمقدمه عام ستة وأربعين وثلاثمائة ، وباثنتين فى سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ، وبدا بعد ذلك الضجر على أبى الطيب ، وداخله حقد على كافور ، لأنه لم ينله أمنيته ، فلم يمدحه فى سنة ثمان وأربعين وثلثمائة إلا بقصيدة ظاهرها مدح وباطنها هجاء مقذع مر ، وفى سنة تسع وأربعين وثلثمائة ألقى آخر سهم فى كنانته ، فمدحه فى شوال من تلك السنة بآخر قصيدة ظل بعدها عاما لا يلقى كافورا ، وإن كان يركب فى معيته حذرا من غضبه عليه ، والقارىء لشعر المتنبي يلمس فيه قوة أمل أبى الطيب واتساع رجائه فى أشعاره الأولى التى مدح بها كافورا ، وقد لا نغالى إذا قلنا إن كافورا من ناحيته قد أكرم مثواه ، وخلع عليه ، ووهبه ؛ فان التاريخ يحفظ له أنه كان نصير الأدب ، وكان برًّا بالأدباء ، جوادا معطاء ، وإن كان كافور فى هذه المدة قد داخله الشك فى صحة احترام المتنبي له ، واعتقاده صدق ما يقول فيه ؛ فقد ذكر صاحب الصبح المنبى أن المتنبي كان يقف بين يدى كافور . وفى رجليه خفان ، وفى وسطه سيف

ومنطقة ، ويركب بحاجبين من مماليكه ، وهما بالسيوف والمناطق ، وكان لايجلس فى مجلس كافور ؛ وروى الرواة أن كافورا دس إلى أبى الطيب من قال له : قد طال قيامك فى مجلس كافور . يريد أن يعلم ما فى نفسه له ، فقال ارتجالا :

يَقِلُّ لَهُ الْقِيَامُ عَلَى الرُّءُوسِ وَبَذْلُ الْمَكْرُمَاتِ مِنَ النُّفُوسِ

وكثيرا ما سئل المتنبى عن السبب الذى حدا به إلى الوقوف بين يدى كافور مع رفضه ذلك بين يدى سيف الدولة ، والسبب فى الحقيقة هو تلك الأمنية الكبيرة التى كان يرجو تحقيقها على يدى كافور ، فلما انقضى عامان على مقدم أبى الطيب بدأ أمله يبعد ، وبدأ يرى أن كافورا لن يبلغه مأربه ، فداخله الحقد عليه ، وهاجت به عوامل الثورة والنقمة ، حتى إنه حين ذكر قتل شبيب العقيلى الثائر على كافور ؛ لم يستطع أن يخفى ما بقلبه من ضغينة عليه ، فتهكم به ، وحدثه أنه نال ما ناله بالحظ ، لا بالسعى والجد ، وإذ كان كذلك فليس له فضل ولا فضيلة ، واستمع إلى التهكم القاتل فى قوله :

قَضَى اللهُ يَا كَافُورُ أَنَّكَ أَوَّلٌ وَلَيْسَ بِقَاضٍ أَنْ يُرَى لَكَ ثَانِ
فَمَالَكَ تَخْتَارُ الْقِسِيَّ وَإِنَّمَا عَنِ السَّعْدِ يَرْمِى دُونَكَ الثَّقَلَانِ
وَمَالَكَ تُعْنَى بِالْأَسِنَّةِ وَالْقَنَا وَجَدُّكَ طَعَّانٌ بِغَيْرِ سِنَانِ
وَلِمْ تَحْمِلُ السَّيْفَ الطَّوِيلَ نِجَادُهُ وَأَنْتَ غَنِيٌّ عَنْهُ بِالْحَدَثَانِ !

ولما لم يجد من كافور سامعا لتلبية رغباته ، عزم على الرحيل من مصر ، وتجسمت فكرة الرحيل عن مصر فى رأسه ، منذ عام ثمانية وأربعين وثلاثمائة ، فقد أصابته الحمى ، فى شهر ذى الحجة من تلك السنة ، فوصفها ، وفى أثناء وصفها عرض برغبته فى الرحيل عن مصر ، وشكى حالته التعسة بها ، مما يشعرنا بأن الجفوة وجدت سبيلها إلى فؤادهما ، حتى أصبح كافور يبتسم فقط إلى أبى الطيب من غير أن تكون هذه الابتسامة دليلا على صفاء الحب وإخلاص المودة ، والمتنبى من ناحيته يجازيه على هذه الابتسامة بابتسامة أخرى لا تزيد على ابتسامته

ولعل أبا الطيب لم ينج فى مصر أيضا من الحساد والحاقدين ، وقلة الأصدقاء المخلصين ، مما جعله يزيد ملالا فى مصر وأهل مصر ، وحقا إن مثل أبى الطيب ما كانت لتطيب له مصر ، أو ليهدأ فيها ، مادام أمله الذى جاء من أجله لم يتحقق فليغادرها إلى حيث يجد لنفسه الطموح مكانا ، واسمعه يقول فى قصيدة وصف الحمى :

وَلَمَّا صَارَ وُدُّ النَّاسِ خِبًّا ... جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامِ
وَصِرْتُ أَشُكُّ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ ... لِعِلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ
أَقَمْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ ، فَلَا وَرَائِي ... تَخُبُّ بِيَ الرِّكَابُ وَلَا أَمَامِي
وَمَلَّنِيَ الْفِرَاشُ ، وَكَانَ جَنْبِي ... يَمَلُّ لِقَاءَهُ فِي كُلِّ عَامِ
قَلِيلٌ عَائِدِي ، سَقِمٌ فُؤَادِي ... كَثِيرٌ حَاسِدِي ، صَعْبٌ مَرَامِي

* * *

أَلَا يَا لَيْتَ شِعْرَ يَدِي : أَتُمْسِي ... تَصَرَّفُ فِي عِنَانٍ أَوْ زِمَامِ ؟

* * *

يَقُولُ لِي الطَّبِيبُ : أَكَلْتَ شَيْئًا ... وَدَاؤُكَ فِي شَرَابِكَ وَالطَّعَامِ
وَمَا فِي طِبِّهِ أَنِّي جَوَادٌ ... أَضَرَّ بِجِسْمِهِ طُولُ الْجِمَامِ

وروى أن المتنبي قال : كنت إذا دخلت على الأسود « كافور » هش لمقدمى وفرح به وابتسم لى ، فلما أنشدته : ولما صار ودّ الناس خبًّا . . البيت ، كفّ عن الابتسام والضحك ، وتلك الرواية تؤيد صحة ما استنبطناه فيما سبق ، غير أن كافورا لم يسمح لأبى الطيب بالرحيل عن مصر ، وأبى عليه أن يغادرها ، حتى لقد استأذنه مرة أن يخرج إلى الرملة ، ليقضى مالا كتب له به فمنعه ، وحلف عليه ألا يخرج ، وقال : نحن نوجه من يقضيه لك ، فغضب أبو الطيب ، وحنق عليه فى قلبه

غير أن بيتين قالهما فى تلك الحادثة أحب أن أوجه إليهما النظر قال :

إِذَا سِرْنَا عَنِ الْفُسْطَاطِ يوماً فَلَقِّنِيَ الْفَوَارِسَ وَالرِّجَالاَ
لِتَعْلَمَ قَدْرَ مَنْ فَارَقْتَ مِنِّي وَأَنَّكَ رُمْتَ مِنْ ضَيْمِي مُحَالاَ

فهل حقاً كان كافور يقصد إذلال المتنبي وإلحاق الضيم به كما قال ؟ إن بعض الروايات ترجح هذا الذى قاله ، ولعل كافوراً حين علم أن المتنبي يبغضه ويحتقره ويدبر الهرب من مصر خشي أن يهجوه ، ويقذع فى هجائه ، فضيق عليه سبيل الهرب قصد إيلامه وإذلاله .

— ٦ —

قلت إن آمال المتنبي التى أنزلها بوادى كافور لم تجد سبيلها إلى التحقق ، ولم يظفر منها المتنبي بقليل أو كثير . فلم يبق بد من أن يجد اليأس سبيله إلى قلبه ، واليأس يبعث فى نفس صاحبه الحقد والضغينة والغضب ، كما بعث فى قلب المتنبي فثار وغضب ، وانقلبت محامد كافور فى نظره مساوىء ومخازى ، وبدأ يهجوه هجاء مراً مقذعاً فى تهكم قاتل مرير فى أثناء وجوده بمصر ، فقد نظر مرة إلى شقوق برجليه ، فقال قصيدة منها :

أَمَيْنًا ، وَإِخْلاَفًا ، وَغَدْراً ، وَخِسَّةً وَجُبْناً ، أَشَخْصاً لُحْتَ لِي ، أَمْ مَخَازِيَا ؟
تَظُنُّ ابْتِسَامَاتِي رَجَاءً وَغِبْطَةً وَمَا أَنَا إِلاَّ ضَاحِكٌ من رَجَائِيَا
وَتُعْجِبُنِي رِجْلاَكَ فِي النَّعْلِ ، إِنَّنِي رَأَيْتُكَ ذَا نَعْلٍ إِذَا كُنْتَ حَافِيَا
وَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي أَلَوْنُكَ أَسْوَدٌ مِنَ الْجَهْلِ أَوْ قَدْ صَارَ أَبْيَضَ صَافِيَا
وَيُذْكِرُنِي تَخْيِيطُ كَعْبِكَ شَقَّهُ وَمَشْيُكَ فِي ثَوْبٍ مِنَ الزَّيْتِ عَارِيَا
وَمِثْلُكَ يُؤْتَى مِن بِلاَدٍ بَعِيدَةٍ لِيُضْحِكَ رَبَّاتِ الْحِدَادِ الْبَوَاكِيَا

وأخذ المتنبي يضرب على وتر هجائه ، ويرميه بمقذع القول ، حتى إن المتنبي لم يشهر بهجاء مثل شهرته بهجاء كافور ، مما جعل كثيراً من الأدباء ينسبون كل هجاء قاله المتنبي ولم يعرف فيمن قاله إلى أنه قاله فى كافور ، وحقاً لقد أقذع فيه كل الإقذاع كقوله فيه :

من أيّةِ الطُّرقِ يأتي نحوكَ الكَرَمُ؟ أينَ المَحَاجِمُ يَا كَافُورُ، وَالْجَلَمُ؟
سَادَاتُ كلِّ أنَاسٍ من نفوسهمُ وَسَادَةُ المُسلِمِينَ الأعبُدُ القزمُ
أغَايَةُ الدِّينِ أن تحفُوا شوَاربَكُم يَا أمَّةً ضَحِكَت من جَهلِهَا الأمَمُ
أَلاَ فَتًى يُورِدُ الهِنْدِيَّ هَامَتَهُ كَيْمَا تَزُولَ شكُولُ النَّاسِ وَالتُّهَمُ!
فَإنَّهُ حُجَّةٌ يُؤذِي القُلُوبَ بِهَا مَنْ دِينُهُ الدَّهْرُ وَالتَّعْطِيلُ وَالْقِدَمُ

ولقد جلب المتنبي على نفسه عداوة وزير كافور ايضاً، وهو أبو الفضل جعفر بن الفرات، المعروف بابن حنزابة، فلم يمدحه مع أنه وزير كافور، والمقرب لديه، وهو من بيت شريف أهل وزارة ورياسة، ومن أهل العلم والأدب. وروى ابن خلكان أن المتنبي حين قصد مصر مدح كافوراً، ومدح وزيره أبا الفضل بقصيدته الرائية التي أولها: «بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أمْ لَمْ تَصْبِرَا». وجعلها موسومة باسمه فتكون إحدى القوافي جعفراً وكان منها

صُغْتُ السَّوَارَ لأَيِّ كَفٍّ بَشَّرَتْ بِابْنِ الْفُرَاتِ وَأَيِّ عَبْدٍ كَبَّرَا

فلما لم يرضه صرفها عنه، ولم ينشده إياها، فلما توجه إلى عضد الدولة قصد أرجان، وبها أبو الفضل بن العميد، فحول القصيدة إليه، ومدحه بها فأبدل ابن الفرات بابن العميد. اه ولهذا أحاطت العداوات بالمتنبي، ففكر جدياً فى ترك مصر. وهنا فى هذا الظرف العصيب ذكر سيف الدولة وما كان يلقاه فى جانبه من الخفض والدعة فقال:

فَارَقْتُكُمْ فَإذا مَا كَانَ عِنْدَكُمُ قَبْلَ الفِرَاقِ أَذًى، بَعْدَ الفِرَاقِ يَدُ
إذا تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمُ أَعَانَ قَلْبِي عَلَى الشَّوْقِ الَّذِي أَجِدُ

عمل المتنبي فى الخفاء على ترك مصر، فبدأ يعد كل مايحتاج إليه بلطف ورفق كى لا يعلم به أحد من غلمانه، وهو مع ذلك يظهر الرغبة فى المقام، ثم كتب إلى عبد العزيز بن يوسف الخزاعي فى بلبيس، يطلب منه دليلا، فأرسل به إليه،

فمدحه باربعة أبيات فاذا كان يوم العيد الأكبر سنة خمسين وثلثمائة ،انتهز فرصة اشتغال الناس بالعيد ، حتى لا يلحظ تغيبه ، وفر هارباً من مصر ناجيا من الضيق الذى أحاطه به كافور ، ويقول المؤرخون إن كافوراً لما علم بهربه بذل جهده فى اقتفاء أثره فلم يفلح ، ونجا المتنبى منه ومن سجنه ، ولا إخال أن كافوراً كان يخشى من المتنبى إلا لسانه وهجاءه المر المقذع ، وقبل أن يغادر المتنبى مصر بيوم واحد ، أنشأ قصيدة قوية السبك متينة الاسلوب ، بدأها بهذا البيت المشهور :

عِيدٌ ، بِأَيَّةِ حَالٍ عُدْتَ يَا عِيدُ بِمَا مَضَى ، أَمْ لِأَمْرٍ فِيكَ تَجْدِيدُ ؟

وفى هذه القصيدة مبالغة فى الاقذاع لكافور ، وحسبك أن تقرأ قوله :

إِنِّى نَزَلْتُ بِكَذَّابِينَ ضَيْفُهُمُ عَنِ القِرَى وَعَنِ التَّرْحَالِ مَحْدُودُ

جُودُ الرِّجَالِ مِنَ الْأَيْدِى وَجُودُهُمُ مِنَ اللِّسَانِ ، فَلَا كَانُوا وَلَا الْجُودُ !

مَا يَقْبِضُ الْمَوْتُ نَفْسًا مِنْ نُفُوسِهِمُ إِلَّا وَفِى يَدِهِ مِنْ نَتْنِهَا عُودُ

أَكُلَّمَا اغْتَالَ عَبْدُ السُّوءِ سَيِّدَهُ أَوْخَانَهُ ، فَلَهُ فِى مِصْرَ تَمْهِيدُ ؟

صَارَ الْخَصِىُّ إِمَامَ الْآبِقِينَ بِهَا فَالْحُرُّ مُسْتَعْبَدٌ ، وَالْعَبْدُ مَعْبُودُ

العَبْدُ لَيْسَ لِحُرٍّ صَالِحٍ بِأَخٍ لَوْ أَنَّهُ فِى ثِيَابِ الْحُرِّ مَوْلُودُ

لَا تَشْتَرِ الْعَبْدَ إِلَّا وَالْعَصَا مَعَهُ إِنَّ الْعَبِيدَ لَأَنْجَاسٌ مَنَاكِيدُ

مَنْ عَلَّمَ الْأَسْوَدَ الْمَخْصِىَّ مَكْرُمَةً أَقَوْمُهُ الْبِيضُ ، أَمْ آبَاؤُهُ الصِّيدُ ؟

أَمْ أُذْنُهُ فِى يَدِ النَّخَّاسِ دَامِيَةً ؟ أَمْ قَدْرُهُ ، وَهْوَ بِالْفَلْسَيْنِ مَرْدُودُ

ولم ينس فى شعره الهجائى أن ينال أهل مصر بالتقريع والهجو ، فهى أمة ضحكت من جهلها الأمم ، لطاعتها كافوراً وخضوعها له ، ومصر أهل كل عجيبة ، بها كثير من المضحكات ، ولكنها مضحكات مبكيات ، قال المتنبى :

وَكَمْ ذَا بِمِصرَ مِنَ المُضحِكَاتِ ؟ وَلَكِنَّهُ ضَحِكٌ كَالبُكَا
بِهَا نَبطِيٌّ مِنَ أَهْلِ السَّوَا دِ يَدرُسُ أَنسابَ أَهلِ الفَلَا
وَأَسوَدُ مِشفَرُهُ نِصفُهُ يُقَالُ لَهُ : أَنتَ بَدرُ الدُّجَى

قالوا : إنه أراد بالنبطى أبا الفضل الوزير ، وبالأسود كافور .

وحقد المتنبى على المصريين ، ووسمه إياهم بالجهل والغفلة ، إنما هو لخضوعهم لكافور ورضاهم به ملكا ، وفى الحق أن المصريين لا يعابون على ذلك ، بعد أن تقبلوا الاسلام ديناً لهم ، والاسلام يحث على طاعة أولى الأمر من أى شعب كانوا ، ولسنا نريد أن ندخل فى تفصيل النظريات الاسلامية التى قبلها المصريون ودانوا بها ، تلك النظريات التى درسناها لم تعب على المصريين خضوعهم لكافور

هذا وقد كان المتنبى أمام مشكلة جديدة : تلك هى مدحه لكافور ، فماذا يصنع؟ لم يكن بد من أن يكذب نفسه فيه ، ويقول :

وَشِعرٌ مَدحتُ بِهِ الكَركَدَنَّ م بَينَ القَرِيضِ وَبَينَ الرُّقَى
فَمَا كَانَ ذَلِكَ مدحاً لَهُ وَلَكِنَّهُ كَانَ هَجوَ الوَرَى

وليس أقوى من شعر المتنبى فى كافور ، دلالة على السخط على الحظوظ والنقمة عليها ، حين يرى مواهبه وملكاته تزيد على مواهب كافور (فى نظره هو) ولكنه لم يؤت حظه .

خرج المتنبى من مصر قاصداً الكوفة وحدثنا عن المواضيع التى مر بها فى طريقه إليها ؛ فى مقصورة أنشأها لهذا الغرض ؛ ولقد وصف خروجه من مصر فى قصيدة رثى فاتكا ؛ وفيها يقول :

لا أُبغِضُ العِيسَ، لَكِنِّى وَقَيتُ بِهَا قَلبِى مِنَ الحُزنِ، أَو جِسمِى مِنَ السَّقَمِ
طَرَدْتُ مِن مِصرَ أَيدِيهَا بِأَرجُلِهَا حَتَى مَرَقنَ بِنَا مِن جوشَ وَالعَلَمِ
تَبرِى لَهُنَّ نَعَامُ الدَّوِّ مُسرَجَةً تُعَارِضُ الجُدُلَ المُرخَاةَ بِاللُّجُمِ

فِي غِلْمَةٍ أخطَرُوا أرواحَهُم وَرَضُوا بِمَا لَقِينَ ، رِضَا الأيسَارِ بِالزَّلَمِ

وهكذا كان مقامه بمصر ذكرى مؤلمة ، تمر بقلبه ، فتثير فيه عوامل الغضب والحقد والأسى والحسرة ، فتزيد نقمته على كافور ، ويهجوه ويهجو أيامه ؛ هذا ولأن المتنبي جاء إلى مصر لغرض خاص هو توليته ولاية فى مصر أو فى الشام ، لم يأبه كثيرا لآثار مصر وما توحيه إلى النفس من معنى الجلال والخلود ، فلم تر فى شعره إلا ألفاظ النيل والهرم والمقطم فحسب فى قوله :

أينَ الَّذِى الْهَرَمَانِ مِن بُنيَانِهِ مَا قَوْمُهُ ، مَايَومُهُ ،مَاالْمَصرَعُ ؟

وقوله فى قصيدة أخرى من قصائده الأولى فى كافور بعد أن ذكر خيله وإبله :

وَسَمنَا بِهَا الْبَيْدَاءَ حتَّى تَغَمَّرَت مِنَ النِّيلِ واستَذرَت بِظِلِّ المقَطَّم

وفى الحق لقد شغل الأمل قلب المتنبي عن كل شيء ، فأين هو من آثار مصر وما فى مصر من جمال وجلال ؟

— ٧ —

أثرت فى نفسية المتنبي تلك المدة التى قضاها بمصر . فأوحت إليه بمبادىء فلسفية آمن بها ، لأنها كانت نتيجة اختباراته فى المدة التى قضاها بمصر ، فاظهر هذه المبادىء ثلاثة : أولها فلسفة النقمة على الدهر وسوء الظن به ، والحقد على تصاريفه ، وذلك نتيجة طبعية لما صادفه المتنبي من خيبة الأمل وانهيار الرجاء ، مع اعتقاده فى نفسه أنه خير كثيرا من هذا الذى يتقلد زمام الملك فى البلاد ، وأولى منه بالرياسة والسلطان ، ولهذا كان أتعب الناس لدى المتنبي كبير الهمة ، بعيد الأمل ، واسع المطامع ، إذا لم يبلغ مآربه وقصر وجده عما تشتهى نفسه ، وخير دواء رآه المتنبي لذلك هو لقيان الدهر من غير اكتراث وتهوين ما يشق على النفس وقعه (وإن كان هو لم يعمل بما قال) وأنصت إلى قوله :

وأتعبُ خَلقِ اللهِ مَن زَادَ هَمُّهُ وقَصَّرَ عَمَّا تشتَهِى النَّفسُ وُجدُهُ

ويقول فى أخرى :

لاَ تلق دَهرَكَ إلاَّ غير مكترثٍ ... مَادَامَ يَصْحَبُ فِيهِ رُوحَكَ البَدَنُ

فَمَا يُدِيمُ سُرُوراً مَا سُرِرْتَ بِهِ ... وَلاَ يَرُدُّ عَلَيْكَ الفائتَ الْحَزَنُ

ثانيها فلسفة سوء الظن بالناس وعدم الثقة بوعودهم وأحاديثهم وصدقهم ، ووفائهم ، فلا خليل إلا وهو مشكوك فى صحة خلته لأنه بعض الأيام ، ولا صديق إلا وهو مطوى الصدر على الخب والخداع ، فلا يغرنك منهم ابتسامة طويلة ، ولا تحبب ظاهر تحته الغش والخيانة ، وهذا نتيجة طبيعية لحياته مع كافور الذى لم ينل منه أمله ، وإنما نال ابتساما فجازاه بابتسام ، واسمعه يقول :

وَلَمَّا صَارَ وُدُّ النَّاسِ خِبًّا ... جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامِ

وَصِرْتُ أَشُكُّ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ ... لِعِلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الأَنَامِ

ويقول :

هَوِّنْ عَلَى بَصَرٍ مَا شَقَّ مَنْظَرُهُ ... فَإِنَّمَا يَقَظَاتُ الْعَيْنِ كَالْحُلُمِ

وَلاَ تَشَكَّ إِلَى خَلْقٍ فَتُشْمِتَهُ ... شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْغِرْبَانِ وَالرَّخَمِ

وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ لِلنَّاسِ تَسْتُرُهُ ... وَلاَ يَغُرَّكَ مِنْهُمْ ثَغْرُ مُبْتَسِمِ

غَاضَ الْوَفَاءُ ، فَمَا تَلْقَاهُ فِي عِدَةٍ ... وأَعْوَزَ الصِّدْقُ فِي الإِخْبَارِ وَالْقَسَمِ

ثالثها فلسفة كانت فى الحقيقة نتيجة رحلته فى مصر ، تلك هى فلسفة القوة والسيف ونبذ فلسفة القول ، والشك فى أنها تجدى ، وذلك أنه رأى نفسه ، مع تملكه عنان البلاغة وأزمة القول لم يبلغ ما كان يريد بلوغه من الولاية والملك والسلطان ، فشك فى فائدة الشعر ثم عاد فآمن بأن القلم خادم السيف ، وأنه لا يجدى إلا إذا كان السيف هو الآمر المطاع ، وأنصت إلى قوله :

حَتَّى رَجَعْتُ ، وَأَقْلاَمِي قَوَائِلُ لِي: ... اَلْمَجْدُ لِلسَّيْفِ ، لَيْسَ الْمَجْدُ لِلْقَلَمِ

أُكْتُبْ بِنَا أَبَدًا، بَعْدَ الْكِتَابِ بِهِ ... فَإِنَّمَا نَحْنُ لِلْأَسْيَافِ كَالْخَدَمِ
أَسْمَعْتَنِي، وَدَوَائِي مَا أَشَرْتَ بِهِ ... فَإِنْ غَفَلْتُ فَدَائِي قِلَّةُ الْفَهَمِ
مَنِ اقْتَضَى بِسِوَى الْهِنْدِيِّ حَاجَتَهُ ... أَجَابَ كُلَّ سُؤَالٍ عَنْ هَلٍ بِلَمِ

وإذا تدبرت قوله « رجعت » فى الشطر الأول علمت أن تلك النتيجة كانت كما قلنا — أكبر ماجناه من رحلته بمصر (١) .

أحمد أحمد بدوى

---

(١) المراجع :
ا — ديوان المتنبي .
ب — الصبح المنبي عن شخصية المتنبي .
ج — وفيات الأعيان لابن خلكان .
د — النجوم الزاهرة فى ملوك مصر القاهرة .